﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٥٢﴾ [الأنفال: 52]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبةُ بينَ هزيمةِ الكفّارِ في بدرٍ، وهلاكِ كفرةِ آلِ فرعونَ ومَن قَبلهمْ

لمّا بيَّن اللّهُ تعالى، ما أنزلهُ بأهلِ بدرٍ من الكفّارِ عاجلًا وآجلًا؛ أتبعهُ بأنْ بيَّنَ أنَّ هذه طريقتُهُ وسنَّتُهُ في الكلِّ، فقال: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾[1]، وأيضًا لمّا بيَّنَ سيرَ المشركين وأعمالهم مع رسولِ اللّهِ ﷺ، وبيَّنَ أنَّ من خالفَ ما أمرَ اللّهُ بهِ ورسولهُ؛ هلكَ كائنًا من كان؛ أتبعَهُ بما يبيِّنُ أنَّ هذا من العمومِ والاطِّراد، بحيثُ لا يخصُّ زمانًا دونَ زمانٍ، ولا مكانًا سوى مكانٍ، وأنَّ ما يفعلهُ المشركون بما أُرسلَ بهِ النَّبيُّ ﷺ، هو كعادةِ الأمم السّالفةِ مع رسلِهم، فذكرَ هذه الآيةَ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَدَأۡبِ﴾: دأبَ الرَّجلُ في عملهِ: اجتهدَ فيهِ، ودأبتِ الدّابةُ في سيرِها دأْبًا ودأبًا ودُؤوبًا، وفي قراءةِ عاصم: ﴿تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا﴾ [يوسف: 47]، ومن المجازِ: هذا دأْبُكَ، أي: شأْنُكَ وعملُك[3]، ويدورُ معنى (دأبَ) عَلى ملازمةٍ ودوامٍ، فالدَّأبُ: العادةُ المستمرَّةُ على حالةٍ، حتَّى تكونَ شأنًا لصاحبِها، ودأبَ الرَّجلُ في عملهِ دَأبًا ودُؤوبًا؛ إذا استمرَّ على العملِ، وواظبَ عليه، وجدَّ، وتعبَ فيه، ففي اللَّفظِ معنى الاجتهادِ في الشَّيءِ، ومعنى ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾: كعادةِ آلِ فرعونَ في كفرِهم، وتظاهرِهم على نبيِّهم.

2) ﴿فَأَخَذَهُمُ﴾: يدورُ معنى الأخذِ على حَوْزِ الشَّيءِ، وجمعِه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/459.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/303.
(3) الزَّمخشريُّ، أساس البلاغة: (دأب).

في الأثناءِ، ضمًّا أو قبضًا، على غِلَظٍ ماديٍّ أو معنويٍّ، والأَخْذُ حوزُ الشَّيءِ وتحصيلُهُ بقوَّةٍ، وهو خلافُ العطاءِ، أي: التَّناولُ، ومنهُ أَخْذُ الميثاقِ، أي: ضمانُهُ، بمعنى تحصيلِهِ بقوَّةٍ، وأخذَهُ بذنبه: تمكَّنَ منهُ، فعاقبَهُ، والمؤاخَذَةُ: المجازاةُ على الذَّنبِ بالعقوبةِ[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ هلاكِ كفّارِ مكَّةَ، كما هلكَ آلُ فرعونَ ومَن قبلَهم

فِعْلُ هؤلاءِ المشركين من قريشٍ الَّذين قُتِلوا ببدرٍ من التَّكذيبِ، والكفرِ بآياتِ اللهِ، كعادةِ قومِ فرعونَ، ومَن كفرَ باللهِ، وكذَّبَ بآياتِه ورسلِه مِن الأممِ الخاليةِ قبلهم، ففعَلْنا بهم مِنَ التَّعذيبِ والهلاكِ، كفعلِنا بفرعونَ وأشياعِه وأتباعِه، ومن سبقَ مِنَ الأممِ[2]، أي: إنَّ هؤلاءِ كذَّبوا كما كذَّبَ فرعونُ وآلُهُ ومن سبقَهم، فنزلَ بهم العذابُ، كما نزلَ بسابقيهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

براعةُ الإيجازِ بالحذفِ في قولِهِ: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾:

الـكـفـرُ مـلَّـةٌ واحـدةٌ، وعاقبةُ أهلِه في الهلاكِ والـعـذابِ مشتركةٌ

لمّا ذكرَ أحوالَ المشركينَ وأعمالهم، واستأنف كلامًا آخر، يبيِّنُ فيه أنَّ ما حلَّ بهم، هو بسببِ كفرهم، لا بشيءٍ آخر من غيرِهم، حُذِفَ المبتدأ، والتَّقدير: دأبُ هؤلاءِ كدأبِ آلِ فرعونَ[3]، وهذا الحذفُ من بلاغةِ الكلامِ ولطفِه، ولو ذكرَ؛ لكانَ ثقيلًا في الكلامِ[4]؛ إذ عادةُ البلغاءِ الاكتفاءُ بما يكونُ له دورٌ في الكلامِ، وما كان جائزًا أو ضروريًّا أن يحذفَ، استغنَوا عنه، واكتفَوا بما يدلُّ عليه، وقالوا: (البلاغةُ الإيجازُ).

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أخذ).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/18.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 2/439، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/229، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/27.
(4) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 147 - 149.

بلاغةُ التَّشبيهِ:

دورُ التَّشبيهِ في تجليَةِ الصّورةِ وبيانِها

في قوله تعالى: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ تشبيهٌ تمثيليٌّ، إذ شبَّهَ المشركين بآل فرعونَ، والَّذين من قبلهم، ووجهُ الشَّبهِ صورةٌ منتزعةٌ من متعدَّدٍ، هي كفرهُم بآياتِ اللّهِ، وما ترتَّبَ عليهِ من أخذِ اللّهِ لهم بذنوبِهم؛ لأنَّ دأبَهم هو مجموعُ ما فعلوا، وما فُعِل بهم، لا ما فعلوهُ فقط[1]، فأركانُ التَّشبيهِ كلُّها مذكورةٌ، لإيضاحِ الصّورةِ وبيانِها للمخاطبينَ.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ (دَأبِ):

من دأبَ على الكفرانِ؛ جنى الخيبةَ والهوانَ

عبَّرَ في قولهِ تعالى: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ بالدَّأبِ ليُشعِرَ أنَّ كفرَهم بآياتِ اللّهِ صارَ عادةً دائمةً مستمرَّةً لهم، وأنَّهم كانوا يجدّونَ ويجهدونَ ويجتهدونَ في كفرِهم، فكانَ شأنًا ملتزمينَ بهِ لا يفارقُهم على التَّأبيدِ[2].

دلالةُ الإضافةِ:

الدَّأبُ على الكفرِ إيغالٌ في الضَّلالِ يؤولُ إلى سوءِ المآلِ

الإضافةُ في قولهِ: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ من إضافةِ المصدرِ إلى فاعلهِ، والمعنى: كما دأبَ آلُ فرعونَ، والَّذين مِن قبلِهم، وأجازَ بعضُ المفسِّرينَ أن تكونَ الإضافةُ من إضافةِ المصدرِ إلى مفعولهِ، والتَّقديرُ: كدأبِ اللّهِ فيهم، فأضافَ الدَّأبَ إليهم؛ إذ لهم نسبةٌ إليه، بكفرِهم بآياتِ اللّهِ، والرَّأيُ الأوَّلُ، هو الرّاجحُ والظّاهرُ[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ الصَّريحِ:

وصفُ اللُّزومِ بلفظِ الدَّأبِ دليلٌ على تأصُّلِهم في الكفرِ

في قولهِ تعالى: ﴿كَدَأۡبِ﴾ عَبَّرَ بالمصدرِ الصَّريحِ (دَأبِ) دون المؤوَّلِ، بأنْ يقالَ: (كما دأب)؛ للإشعارِ بلزومِهم الكفرَ بآياتِ اللّهِ، وأنَّه صارَ حدثًا ملازمًا لهم من غيرِ تخصيصٍ بزمنٍ، فوصْفُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/28.
(2) الحرّالي، تراث أبي الحسن الحرّالي: 1/521.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/540.

اللُّزوم من معنى الدَّأب، كما أنَّهُ لو جاء بالمصدر المؤوَّل؛ لأفادَ أنَّهم كفروا، ثم صارَ الكفرُ دأبًا لهم، فلمّا جاء بالمصدرِ الصَّريح؛ كانَ على معنى المبالغةِ، فكأنَّ ابتداءَ حالِهم، هو الدَّأبُ على الكفرِ بآياتِ اللّهِ، توبيخًا لهم وتقبيحًا، ولتعظيمِ شأنِ الكفرِ بآياتِ اللّهِ[1].

سببُ إيثارِ التَّمثيلِ بآلِ فرعونَ دونَ سواهُم:

آلُ فرعونَ نموذجٌ للطُّغيانِ، ومثالٌ للمصيرِ المزري

نَبَّهَ على آلِ فِرْعَوْنَ، دون غيرِهم من الأممِ السّابقةِ؛ لأنَّ الكَلامَ معَ مخاطبينَ يَعْرِفونَ ما جَرَى لأشياعِ فرعونَ وأتباعِه، حينَ كَذَّبوا بموسَى مِن إغْراقِهم وتَصْييرِهم آخِرًا إلى النّارِ.

بلاغةُ التَّعريضِ:

تأرجحُ عقبى الكفّارِ بينَ الاستئصالِ والنّارِ

في الآيةِ بشارَةٌ لِرَسولِ اللّه ﷺ، ولِمَنْ آمَنَ به، لِما تفيدهُ من التَّعريضِ بأنَّ الكُفّارَ مَآلُهُم في الدُّنْيا إلى الاسْتِئْصالِ، وفي الآخِرَةِ إلى النّارِ، كَما جَرَى لِآلِ فِرْعَوْنَ والذين من قبلِهم، أُهْلِكوا في الدُّنْيا، وصاروا إلى النّارِ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصلتِهِ:

الاسمُ الموصولُ يستوعبُ الأممَ السَّوابقَ على امتدادِ الدَّهرِ

لمّا كانت الأممُ السّالفةُ كثيرةً، أوجزَ في تعدادِهم بذكرِ الاسمِ الموصولِ، بوساطةِ جملةِ الصِّلةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، ولمّا كانَ لفظُ (قَبْلِ) هنا، للتَّقدُّمِ الزَّماني من غيرِ قيدٍ، أفادَ استيعابَ الأممِ السّالفةِ معَ الإيجازِ، وللإشعارِ بأنَّ توالي الأزمانِ لم يغيِّرْ دأبَهم وعاداتِهم في الكفر.

نكتةُ مجيءِ ﴿مِن﴾ في قولِهِ: ﴿مِن قَبْلِهِم﴾:

الكفرُ مسارٌ ممتدٌّ عبرَ الزَّمانِ الموغلِ في القدمِ

ذكرَ حرفَ الجرِّ ﴿مِن﴾ لإفادةِ الابتداءِ؛ للإشعارِ بامتدادِ دأبِ الكفرِ، وكأنَّهُ سارَ من زمنِ الأممِ السّالفةِ إلى وقتِ آلِ فرعونَ، وأفادَ الحرفُ ﴿مِن﴾ أنَّ كلَّ قومٍ كانوا يبتدئونَ كفرَهم بآياتِ اللّهِ، حتَّى

(1) السّامرائيّ، معاني النّحو: 3/148.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/36.

يكونَ الأمرُ عندَهم عادةً وشأنًا لا يفارقونَهُ، كما تحتملُ (مِن) معنى النّيابةِ عن (في)، للتّنصيصِ على الظَّرفيَّةِ الزَّمانيَّةِ للأقوامِ السّالفةِ، والمعنى: وكدأبِ الَّذين هم في الوقتِ الَّذي كان قبلَ وقتِ آلِ فرعونَ[1].

دلالةُ العطفِ في قولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾:

الكافرونَ مجموعونَ في الكفرِ والضَّلالِ على موقفٍ واحد

لمّا كانَ العطفُ بالواوِ على معنى التَّشريكِ بين المعطوفينَ في الحكمِ؛ أفادَ أنَّ دأبَ آلِ فرعون، ودأبَ الَّذين من قبلهم أمرٌ واحدٌ، في الكفرِ بآياتِ اللّه، فتكونُ عادةُ الأمم بجملتِها لا على انفرادِ أمَّةٍ[2].

دلالةُ عودِ الضَّميرِ في قولِهِ: ﴿قَبۡلِهِمۡۚ﴾:

الدُّنيا تموجُ بالصِّراعِ بينَ الكفرِ والإيمانِ عبرَ الأزمانِ

يُحتمَلُ أن يعودَ الضَّميرُ في ﴿قَبۡلِهِمۡۚ﴾ على آلِ فِرۡعَوۡنَ، فيكونُ المرادُ من الاسمِ الموصولِ، كُفّارَ الأُمَمِ السّالفةِ، كَقَوۡمِ نوحٍ، وقَوۡمِ هودٍ، وقَوۡمِ شُعَيۡبٍ، وغَيۡرِهم، وهذا هو الظّاهرُ من السّياقِ، وكذا يُحۡتَمَلُ أنۡ يَعودَ الضَّميرُ على الَّذينَ كَفَروا، وهُم مُعاصِروا رَسولِ اللّه ﷺ[3].

دلالةُ قولِهِ: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾ بينَ الاستئنافِ والحاليَّةِ:

من كفرَ بآياتِ اللّهِ؛ أُخِذَ بذنبه، ولاقى ما لا يرضاهُ

تحتملُ الجملتانِ ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾، أن تكونا بمنزلةِ الاستئنافِ البيانيِّ، لتكونا تفسيرًا لدأبِ آلِ فرعونَ، ويكونَ الضَّميرُ في ﴿كَفَرُواْ﴾ عائدًا إلى ﴿ءَالِ﴾، كَأَنَّهُ قيلَ: (ما فعَلَ آلُ فرعون والذين من قبلهم ليكونوا مثلَهم؟ وما فُعِلَ بهمْ؟)، فقيلَ: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾، فالجملتانِ المعطوفتانِ كَأَنَّهما جَوابُ سُؤالَين مُقَدَّرَين، كما تحتملُ أن تكونا تفسيرًا لدأبِ مشركي مكَّةَ، ويكون

(1) الرّضي، شرح كافية ابن الحاجب: 4/260، والسّامرائيّ، معاني النّحو: 2/194.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/540.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/38.

الضَّميرُ في ﴿كَفَرُواْ﴾ عائدًا إلى مشركي مكَّةَ، كما تحتملُ الجملتانِ أن تكونا حاليَّتينِ، بتقديرِ (قد كَفَروا)، أي: دأبُ كفّارِ مكَّةَ، كدأبِ آل فرعونَ، والَّذين من قبلهم في حالِ كفرهِم وإهلاكِهم[1].

سرُّ جعلِ أخْذِ اللهِ للكفّارِ دأبًا:

دخـولُ العـذابِ في الـــدَّأبِ من بـابِ تغليبِ ما فعلوهُ على ما فُعِلَ بهم

لمّا كانَ الدَّأْبُ على معنى الاعتيادِ على الشَّيءِ، والاستمرارِ عليهِ، وكان العذابُ قد جُعِلَ من جملةِ دأبِهم، مع أنَّهُ ليس ممّا يُتصوَّرُ مداومتُهم عَليهِ، واعتيادُهُم إيّاهُ، كما هو المعتبرُ في مدلولِ الدَّأبِ، أفادَ أنَّ دخولَ العذابِ في الدَّأبِ من بابِ تغليبِ ما فعلوهُ على ما فُعِلَ بهم، أو لِتنزيلِ مداومتِهم على ما يوجبُهُ من الكفرِ والمعاصي منزلةَ مداومتِهم على العذابِ، لما بينهما من الملابسةِ التّامَّةِ[2].

دلالةُ الآياتِ الإلهيَّةِ في قولهِ: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾:

يتكاملُ الإعجازُ في آياتِ اللهِ في الكونِ المنظورِ، والوحي المسطورِ

يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ المرادُ من ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾: المَتْلوَّةَ في كُتُبِ اللهِ، ويُحْتَمَلُ أنْ تَكونَ العَلاماتِ الدّالَّةَ على تَوْحيدِ اللهِ وصِدْقِ أنْبيائِه[3]، قال ابن عبّاسٍ: "هو أنَّ آلَ فرعونَ أيقنوا أنَّ موسى نبيٌّ من اللهِ، فكذَّبوهُ، كذلك هؤلاءِ جاءهم محمَّدٌ ﷺ بالصِّدقِ فكذَّبوه، فأنزلَ اللهُ بهم عقوبتَهُ، كما أنزلَ بآلِ فرعونَ، والَّذين من قبلِهم، أي: كفروا بآياتِ اللهِ، فأخذَهُم اللهُ بذنوبِهم، إنَّ اللهَ قويٌّ شديدُ العقابِ" [4].

نكتةُ جمعِ لفظِ (آياتِ):

من كابرَ آياتِ اللهِ بالنُّكرانِ، أولاهُ اللهُ الخسرانَ والهوانَ

في قوله تعالى: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾، أفادَ جمعُ الآياتِ أنَّ الآياتِ كانت تتوالى عليهم، ولم يكنْ لهم آيةٌ واحدةٌ، وأنَّ دأبَهم كان هو الكفرُ بها، وقد تَعدَّدَتْ رسلُهم وكثرت، وتوالى المبعوثونَ لهم من

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/229، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/63، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/28، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/109.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/28.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/39.
(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/302.

الرُّسلِ والأنبياءِ الَّذين كثروا وخصوصًا في بني إسرائيلَ، فكانَ الكفرُ بذلكَ متعدِّدًا بتعدُّدِ التَّكذيب الَّذي يُقابلُ بهِ كلُّ نبيٍّ تختارهُ العنايةُ الإلهيَّةُ للبلاغِ، ولذلك كان الجمعُ للفظِ آياتٍ مناسبًا لتعدُّدِ ذلك وتكرارهِ، في فتراتٍ متلاحقةٍ.

دلالةُ الإضافةِ في قولهِ: ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾:

الآيـاتُ المضافةُ إلى الـلـهِ في الآيةِ، لعنةٌ على من ارتادَ الغوايةَ

الإضافةُ للتَّخصيصِ، لتعظيمِ الآياتِ بتخصيصِها باللهِ تعالى، وفي التَّعبيرِ إيذانٌ أنَّهم كانوا يعرفونَ أنَّها آياتُ اللهِ، ثمَّ يكفرونَ بها، ففيهِ توبيخٌ للكافرين، وتهويلٌ لكفرِهم؛ لأنَّ من عرفَ التزمَ وأنابَ، إن رجعَ وتابَ، ومن جهلَ واستكبرَ بعد أن عرفَ وأنكرَ؛ كان نكرانُهُ عن علمٍ ومعرفةٍ بالحقِّ، فوجبَ أن يكونَ إيمانُهُ أكبرَ، وتصورُّهُ للهدى أبصرَ، ولكنَّهُ أضاعَ الدَّليلَ، فضلَّ عن سواءِ السَّبيلِ.

دلالةُ الفاءِ في: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾:

الـكـفـرُ مـفـضٍ إلى الـذُّنـوبِ، ومعرِّضٌ صاحبُهُ للأواءِ الخطوبِ

أفادتِ الفاءُ أنَّ ما قبلَها سببٌ لما بعدَها، مع التَّرتيبِ والتَّعقيبِ، والمعنى: أنَّ كفرَهم بآياتِ اللهِ، جعلَهم يذنبونَ ذنوبًا كثيرةً، فكان سببًا في أخذِهم وهلاكِهم، وأنَّ أخذَهُم كان بعدَ كفرِهم وارتكابِهم الذُّنوبَ، وتعقيبُ كلِّ أمرٍ بحسبه، وهو أمرٌ يقتضيهِ عدلُ اللهِ الَّذي غمرَ الموجوداتِ، وكان كلُّ شيءٍ عنده بمقدارٍ، ولا يظلمُ ربُّك أحدًا.

مناسبةُ وضعِ الظّاهرِ موضعَ المضمرِ:

غـرضُ الإظـهـارِ زيـادةُ تـمـكـينِ الاسمِ الجليلِ، وتقريرهُ في ذهنِ السّامعِ

كان الظّاهرُ أن يقولَ: (كفروا بآياتِ اللهِ، فأخذهم بذنوبِهم)، لقربِ ذكرِ الاسمِ الجليلِ، فعدلَ عن الكلامِ بوضعِ الظّاهرِ موضعَ المضمرِ في قولهِ: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾، لتربيةِ المهابةِ بتقريرِ ذكرِ الاسمِ الجليلِ، ولتعظيمِ كفرِهم بآياتِه سبحانه، ولزيادةِ تمكينِ الاسمِ الجليلِ وتقريرِه في ذهنِ السّامعِ، حتَّى يكونَ مستحضرًا لا يزولُ عن البالِ؛ لبيانِ عظمِ أخذِ اللهِ لهم وإهلاكِهم، وأنَّه من مقامِ

الألوهيَّة الجليلةِ، ولم يقل: (فأخذناهم بذنوبهم) ليكونَ الكلامُ على منهاجٍ واحدٍ في الغيبةِ[1].

بلاغةُ الاستعارةِ:

من أخذتْهُ قوَّةُ اللهِ؛ فلا مفرَّ لَهُ منها، ولا فكاكَ

في قولِه تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾، جاءَ الكلامُ على طريقِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، وبيانُه أنَّه شبَّهَ إحاطةَ عذابه بهم وإهلاكهم بقوَّةٍ، وانتفاءِ تفلُّتِ أيِّ واحدٍ منهم، بالمأخوذِ باليَدِ المُتَصَرِّف فيه بحُكْمِ إرادةِ الأخْذِ[2] الَّتي تفيدُ حوزَ الشَّيءِ والتَّمكُّنَ منهُ، وتحصيلَه بقوَّةٍ، للإيذانِ أنَّ عقابَهم كانَ عظيمًا، وأنَّهُ استوعبَ جميعهم.

دلالةُ الباءِ ومجرورِها في قولِه: ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾:

ما ظهرَ من الذُّنوبِ يقعُ عقابُهُ في الدُّنيا، وما ضُمِرَ يُستوفى في الآخرةِ

الباءُ سببيَّةٌ، بمعنى: أنَّ سببَ أخْذِهم وإهلاكِهم، هو ما اكتسبوهُ من الذُّنوب مع كفرِهم، ففيهِ إشارةٌ إلى أنَّ لهم مع كفرِهم ذنوبًا أُخَرَ، لها دخلٌ في استتباعِ العقابِ، ويجوزُ أن يكونَ المرادُ بذنوبهم معاصيَهم المتفرِّعةَ على كفرِهم، فتكونُ الباءُ للملابسةِ، أي: فأخذَهم ملتبسينَ بذنوبِهم، غيرَ تائبينَ عنها[3]، وفي الباءِ السَّببيَّةِ إشعارٌ بأنَّ صريحَ المؤاخذةِ مُناطٌ بالذُّنوبِ، وأنَّ المؤاخذةَ الدُّنيويَّةَ لا تصلُ إلى حدِّ الانتقامِ على الكفرِ بآياتِ اللهِ فقط، فأفادَ أنَّ ما ظهرَ من أمرِ الدُّنيا يقع عقابًا على ما ظهرَ من الأعمالِ، وما بطنَ من أمرِ الآخرةِ، يستوفي العقابَ على ما أصرَّت عليه الضَّمائرُ من الكفرِ[4]، وقد أفادَ الجمعُ في المجرورِ بالباءِ كثرةَ ذنوبِهم، وعبَّرَ بالذُّنوبِ دونَ غيرِها، ممّا يدلُّ على المعصيةِ؛ لأنَّ الذَّنبَ ينبئُ عن استحقاقِ العقابِ المناسبِ للسّياقِ[5].

(1) البهاء السّبكيّ، عروس الأفراح: 1/266 - 267.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/39.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/38، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/28.
(4) الحرّالي، تراث أبي الحسن الحرّالي: 1/522.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 257.

دلالةُ ﴿إِنَّ﴾ في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾:

عـقـابُ الـلـهِ شديدٌ قويٌّ على كلِّ كافرٍ عتيٍّ

تفيدُ ﴿إِنَّ﴾ تأكيدَ مضمونِ الجملةِ؛ لبيانِ أنَّ اللّه تعالى ليس بخافٍ عليهِ ما يفعلهُ الكفّارُ، وأنَّه سيعاقبُهم على كفرِهم، وفي التَّأكيدِ تعريضٌ بالمُشْركينَ، فقد كانوا يُنْكِرونَ قوَّةَ اللّه عليهم، بمعنى لازمِها، وهو إنْزالُ الضُّرِّ بهم، ويُنْكِرونَ أنَّه شَديدُ العِقابِ لهم، فأكَّدَ الخَبَرَ باعْتِبارِ لازمِهِ التَّعْريضيِّ الَّذي هو إبْلاغُ هذا الإنذارِ إلى مَنْ بَقيَ مِنَ المُشْرِكينَ[1].

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

العـذابُ منوطٌ بـالـسَّـيِّـئـاتِ الماحقةِ، ولا يقعُ بلا سابقةٍ

في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، مَسوقٌ لتعليلِ ما يفيدُ النَّظمُ الكريمُ من كونِ ما حلَّ بهم من العذابِ منوطًا بأعمالِهم السَّيِّئةِ غيرَ واقعٍ بلا سابقةٍ، فالجملةُ جوابٌ لسؤالٍ تقديرُهُ: لِمَ أخذهم بذنوبِهم؟[2].

بلاغةُ حسنِ التَّذييلِ:

التَّذييلُ كالأمثالِ المرويَّةِ مفيدٌ للعمومِ والكليَّةِ

في التَّذييلِ بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ فوائدُ؛ هي: أوَّلًا: تفيدُ معنى العمومِ والكلّيَّة لما تدلُّ عليه الجملةُ الاسميَّةُ من معنى الثُّبوتِ، ولوصفِ اللّهِ تعالى بوصفين ثابتينِ لهُ سبحانه، ثانيًا: لمّا كانت جملةُ التَّذييلِ، تفيدُ العمومَ والكلّيَّةَ؛ دلَّت على أنَّها بمنزلةِ المثلِ، في جريانِها في الكلامِ. ثالثًا: التَّنبيهُ على أنَّ كلَّ مَن يكفرُ باللّهِ وآياتِه، له عذابٌ مدَّخرٌ، ويدخل فيه كفّارُ مكَّةَ – ومن كان قبلَهم – دخولًا أوَّليًّا سوى ما نزلَ بهم من العذابِ العاجلِ[3].

مناسبةُ مجيءِ الوصفينِ في جملةِ التَّذييلِ:

وصْـفُ الـلـهِ بـالـقـوَّةِ وشـدَّةِ العقابِ يتلاءمُ مـع مـضـمـونِ الخطابِ

لمّا كانَ الكلامُ عن دأبِ كفّارِ مكَّةَ، ومن كانَ قبلَهم من الأممِ السّالفةِ الَّتي كفرت بآياتِ اللّهِ، وكان الدَّأبُ بمعنى الشَّأنِ الَّذي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/44.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/104.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/495.

يكونون عليه؛ ناسبَ مجيءُ الوصفين؛ لأنَّ وصْفَ اللهِ تعالى بالقويِّ، بمعنى التّامِّ القوَّةِ الَّذي لا يَسْتَوْلي عَلَيهِ العَجْزُ في حالٍ مِن الأحْوالِ[1]، وجاءَ وصف ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمناسبةِ المجازاةِ في قولهِ تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۚ﴾؛ لأنَّ معنى الأخْذِ بالذَّنْبِ العِقابُ عليه[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العادة والدَّأب:

الدَّأبُ والدَّؤوبُ: المبالغةُ في السَّيرِ، وأدأبَ الرَّجلُ الدّابةَ إدآبًا؛ إذا أتعبَها، والفعلُ اللّازمُ دأبتِ الدّابةُ تدأبُ دُؤوبًا، وقولهُ تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [آل عمران: 11]، أي: كعادتِهم وحالِهم[3]، الفرقُ بينهما: هو أنَّ الدَّأبَ لا يكونُ إلّا اختيارًا، وفيه معنى الجدِّ والاجتهادِ والكدحِ، حتَّى يصيرَ الأمرُ شأنًا لازمًا، مع الجهدِ والتَّعبِ في تعاطيهِ، وفيه معنى الاستمرارِ على حالةٍ واحدةٍ، وأمّا العادةُ؛ فهي اسمٌ لتكريرِ الفعلِ والانفعالِ حتى يصيرَ ذلك سهلًا تعاطيهِ كالطَّبعِ، ولذلك قيل: العادَةُ طبيعةٌ ثانيةٌ، ولمّا كان العودُ بمعنى الرَّجوعِ إلى الشَّيءِ وتجدُّدِ الأمرِ فيه؛ دلَّ على احتمالِ تغيُّرِ الحالِ في الاختيارِ، وقد تكونُ العادةُ اختيارًا أو اضطرارًا[4].

الدَّأبُ: اجتهادٌ باختيارٍ، والعادةُ: إلفُ الأمرِ بالتَّكرارِ

(1) الخطابي، شأن الدّعاء: 1/77.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/85.
(3) الخليل، العين: 3/38.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 254، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عود).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 16 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-12-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 16 : المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-12-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9828150 بتاريخ 2024/01/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»